متخيل الحيوان في أدب الطفل (مقاربة تحليلية فنيّة للمجموعة القصصية البطة البيضاء لجاسم محمد صالح)

The Animal Imaginary in Children's Literature (An artistic analytical approach to the story collection The White Duck by Jassim Mohammad saleh)

نادية العقون[1]*، سعيد عموري[2]

[1]المركز الجامعي مرسلي عبد الله، elaggoune.nadia@cu-tipaza.dz

[2] المركز الجامعي مرسلي عبد الله، said_amo@yahoo.com

الاستلام:10-01-2022 القبول: 31-05-2022 النشر:12-06-2022

الملخص

هدفت دراسة متخيل الحيوان في أدب الطفل، إلى سبر أغوار عوالم هذا الإبداع الأدبي، وفهم طبيعة اشتغاله التي يبدو فيها المتخيل عنصرا شبه قار، فيحضر اللامعقول باعتباره حقيقة لا ريب فيها، مستمد مشروعيته من مقولة الخيال أحد أنواع الأدب، وذلك من خلال اعتماد المقاربة التحليلية الفنية للمجموعة القصصية البطة البيضاء لجاسم محمد صالح. وصلنا من خلال هذه الدراسة إلى عدة نتائج نذكر منها: أن المتخيل يكاد يكون لبنة أساسية من لبنات البناء القصصي للأطفال، فالعلاقة بين الطفل و الحيوان، علاقة خاصة يملؤها الغموض و الأسرار، و تجسيد هذا الرمز-الحيوان- في شكل قصصي؛ شكلٌ من أشكال التربية، وطريقة لتعريفه بالمجتمع و هويته، ونوع من أنواع التوعية، وخطاب لأخذ الموعظة، وعليه؛ طالما ولازال الحيوان المعلم الأول للإنسان منذ القدم.

الكلمات المفتاحية: متخيل، حيوان، أدب الطفل، تحليل فني، جاسم محمد صالح.

Abstract

The study of the animal imaginary in children's literature aimed to probe the depths of the worlds of this literary creativity, and to understand the nature of its work in which the imaginary appears to be a semi-permanent element, bringing the absurd as an undoubted fact, deriving its legitimacy from the saying (imagination) is one of the types of literature, through the adoption of An artistic analytical approach to the story collection The White Duck by Jassim Mohammad saleh.Through this study, we reached several results, including: The imaginary is almost a basic building block of children's stories.The relationship between the child and the animal is a special relationship filled with mystery and secrets, and the embodiment of this symbol-the animal-in a fictional from; A form of education, a way to introduce it to society and its identity, a kind of awareness, and a discourse to take an exhortation, and accordingly; As long as the animal is the first teacher of man since ancient times.

Keywords : Imaginary, animal, Children's literature, technical analysis, Jassim Mohammed saleh.

*المؤلف المراسل

1.مقدمة:

اقتحمت تخوم المواضيع، الكتابة الإبداعية؛ فأخذت تتصارع على القلم، متصدرةً المشهد ضمن الخطاب الأدبي، فهب المبدع يستلهم من الواقع و همومه لوحة فنية لتشكيل تيمته الإبداعية؛ التي ما هي إلا رسالة واعية علها تكون سببًا و دافعا في توجيه أفراد المجتمع إلى حل مشاكله بشكل واع هذا من جهة، و منه التأصيل لثقافته و هويته من جهة أخرى التي تحملها مخيلته و تصورها لغته في قالب فني ذا بعد دلالي يحمل في طياته قضايا أمته.

وفي ظل زخم المعارف لهذا العصر و تزاحمه في طريق تطور العلم؛ الذي أخذ يتفرع إلى علوم متنوعة، و تخصصات عديدة، انعكس هذا التنوع و التعدد بدوره على الأدب و غدا آداب، و من هذه المسلمة نرى هناك أدب شعبي، و هذا إفريقي، و آخر عالمي وغيرها، ليصل قلم الناقد إلى أدب الطفل؛ في الخطاب الأدبي، و الخوض في هذه المسألة يتطلب ملكة إبداعية ذات دراية كافية بعالم الطفل و بيئته و ثقافته، و ملكة نقدية ذات جرأة للوقوف على ضفافها.

قد أسال هذا الأدب–أي أدب الطفل– في العالم العربي الكثير من الحبر فليس من الغريب أن تكون القريحة الإبداعية العراقية، قد ركبت صهوة هذا الموضوع لما تحمله هذه البيئة من أنساق سيميائية ذات أبعاد ثقافية، انعكست على الكتابة السردية عبر مر الزمن، و عاشت في تصورها التخييلي،وقد شكلت لبنة أساسية في طرح أدبهم، و منها المجموعة القصصيّة (البطة البيضاء) لجاسم محمد الصالح وهو ما نهدف لدراسته تحت عنوان متخيل الحيوان في أدب الطفل.

الإشكالية:

و نظرا لما سبق، تسعى الباحثة إلى الإجابة على السؤال التالي: هل قصص الحيوانات و اللامعقول طفولة الأدب أم هي أدب الطفولة؟

الأهداف:

كما تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على هذه العلامة–ألا و هي الحيوان–بهدف معرفة القيمة الفنية لهذه الرمزية اللغوية و مدى تأثيرها على الطفل ،ومدى جاذبية بعدها الجمالي له،وتشجيعه على القراءة، و انعكاسها على بناء ثقافته و توسيع قدراته على كسب معارف جديدة تعبر عن ثقافة بيئته على لسان الحيوان قصد استقطابه و توسيع ملكة التخيل لديه.

المنهجية:

يحاول البحث دراسة متخيل الحيوان في أدب الطفل، معتمدا المنهج التحليلي الفني بيد تقصي علاقة رمز الحيوان بالأدب، وعلى الخصوص أدب الطفل، ومنه مدى قوة حضوره في النص القصصي، و كنموذج لهذه الدراسة اخترنا المجموعة القصصيّة (البطة البيضاء) لجاسم محمد الصالح، معتمدين على مقاربة نظرية عن رمز الحيوان في الأدب، وأخرى تطبيقية لتسليط الضوء على أسلوب القاص في طرح هذه الرمزية الفنيّة عند جاسم محمد صالح، وما هي بؤرة الرسالة المبتغاة منها ضمن عمله (البطة البيضاء).

2. مقاربة نظرية:

مما لا ريب فيه أن الحيوان من الأشياء المحببة لدى الطفل فهي حركة ذكية –إن صح القول– لجذب الطفل بهذا التصور للقراءة، و تربيته منذ النشأة على احتضان الكتاب بين أنامله فيقول الفيلسوف (الكتاب خير صديق في الأنامل) بهدف بناء مجتمع مثقف وواع، و هي بذرة تغرس منذ الصغر، و تسقى لتنمو وتشكل فردا ذا استقلال ثقافي، واجتماعي، وانتماء لوطنه.

1.2 متخيل الحيوان في القص الأدبي:

الحيوان يمثل قيمة في مخيال الإنسان لما يحمل في طياته من سمات تدل على دلالات معينة ولطالما كانت صورة الحيوان في الأدب قناع يلبسه المؤلف قصد الخوض في التعبير عن هموم المجتمع من جهة و جمالية فنية يستقطب بها جمهور من القراء من جهة أخرى،" لا تختلف حكايات الحيوان عن غيرها من الحكايات، فهي بدورها تهدف إلى إعطاء دروس الحياة و قواعد السلوك داخل الجماعة، ولهذا فكلام الحيوان ليس سوى كلام الإنسان، بحيث يغدو الحيوان مجرد قناع يختفي وراءه الإنسان لبث نظام الأخلاق و القيم من خلال تعليق المواقف على الحيوان المستعار للغرض المطلوب" (حجو، 1433هـ–2012م، صفحة 253)؛ وبما أن حديثنا يخص أدب الطفل ليس هناك أداة لتشجيعه على خوض غمار القراءة و التعلق بها أدهى من توظيف رمزية الحيوان في كتاب الطفل لجذبه إلى الكتاب قصد تنوير عقله و توسيع نطاق ثقافته و بناء طفل سليم لبناء مجتمع غدٍ سليم.

خاصية توظيف قناع الحيوان يكسي قصص الطفل لون يضرب ذاكرتنا في القدم لنستحضر قصص (كليلة و دمنة) حيث استعمل كاتبها (ابن المقفع) لسان الحيوان للتعبير عن أيديولوجيته و قناعاته، وأخذ العبرة منها، التي ترمز في الأساس لشخصيات بشرية، وهذا يشيد بضرورة التعرف على دلالة هذا المتخيل لدى الثقافة العربية، ومدى تمفصل متخيل الحيوان ضمن

نصها، وهو الأمر الذي ما يدعونا نطرح هذه الإشكالية:ما الغاية المُرادة من القص على لسان الحيوان؟ها نحن اليوم نلفي وجود رمزية الحيوان بالقلم العراقي في المجموعة القصصية (البطة البيضاء)، جاعلا من الحيوان لسانه الناطق الرسمي فيها معبرة على عدة مواضيع من أبرزها العلاقة بين بني البشر، كثيرا ما استعمل العرب هذه الرمزية للتعبير عن القضية السياسية لبلادهم هروبا من بعض الساسة و الحكام البيروقراطيين، مما يثير فينا تساؤل آخر:هل مازال القلم العربي تحت رقابة الرجل الحاكم؟ و على الكاتب العربي الولوج في عوالم من حفلات تتكرية للحديث عن قضية ما تخص أمور أمته كما هو معلوم "الأديب ابن بيئته" أي ملتزم بنشر الوعي و إصلاح المجتمع بالقلم هنا قد يكون من أضعف الإيمان.

قد يستعمل الرمز عادة لتوضيح و تقريب الفكرة أكثر"و معنى ذلك أن طابع التصور الإبداعي يزيد من قابلية الفهم؛ لتحديد الرؤية الراجعة التي جاء استخدامها، لتوضيح الوظائف الدالة بصيغ اللامعقول، ومتى تصور المبدع أن الحقيقة تحتوي على قدر من المداهنة، أو الميل عن الجادّة، وفقا للخطة المرسومة؛ فإن ذلك يفترض وجود لتماثل الشيء في نفسه، و إنما يكمن في افتراضه مع القياس بالاستدلال صِنْوَ الشيء الآخر تقديرًا، أو حقيقةً، اعتقادًا منا أن كالصورة مهما كانت واقعية فإنها تصبح في نظر المبدع افتراضية بتمثلاتها التخييلية، المبنية على الإثارة (فيدوح، 2019م، صفحة 72) بمعنى ليس بالضرورة أن يحمل الرمز طابع الغموض بل هو يتطلب قارئ نموذجي مثقف يستطيع كسر طابوهات اللغة الأدبية، و نحن كمتلقين على دراية بأن المؤلف يضفي على كتاباته لمسة تخييلية على الأقل في نظره حتى لو كانت مستمدة من أحداث واقعية؛ فهو في الغالب يروي قصص و روايات ما لم يعيشها؛ فالضرورة الإبداعية تستدعه أن يظن نفسه وسط عالم افتراضي.

جبل الطفل منذ نعومة أظافره على أساطير، وخرافات، وحكايات الجدة حول موقد النار، ويقول في هذا الشأن (محمد حجو):"إن الرعشة هي جوهر اللذة، والبحث في الحكايات لذة من نوع خاص، ومن لم يتحلق حول موقد النار أو الكانون يتدفأ و يستمع لأمه أو جدته تحكي عن الأطفال المتخلى عنهم في الغابة و الأطفال الذين احتالت عليهم الغولة كي (تأكلهم)...من لم يعش لحظات الحكي هاته و أحس بفرائضه ترتعش، على الرغم من دفء الأمومة و الأخوة و النار، لا يمكنه أن يدرك هذه الرعشة" (حجو، 1433هـ-2012م، صفحة 16)و غيرها من الحكايات ليلى و الذئب، لمجة و الغولة الخراف السبع و الذئب وغيرها من حيوانات الغابة.

نخلص أن القص للأطفال لم يحكمه مكان معين كان وليد الزمن وليس المكان، بمعنى آخر"حينما ندخل مع الأطفال إلى غابة من غابات الخرافات الشعبية نجد أنفسنا في غابة العالم كله، غابة البشرية الكبيرة و اللامحدودة، بكل أبعادها الرمزية، ولا يكاد يدخل الدارس إلى هذا الميدان، ميدان الحكي الشعبي، ويتخطى حدود الجغرافيا و اللغة و السياسة ليلج فضاءات التاريخ و الإثنولوجيا و السيكولوجيا الجماعية بمدها و جزرها، حتى يقف على تقاطعات في الرؤى للأجناس البشرية المختلفة، تغريه بإلغاء النسب الجغرافي للخرافات و الحكايات بإلغاء موطنها المكاني، لئلا تنتسب في النهاية سوى للزمن" (حجو، 1433هـ-2012م، الصفحات 17-18) لو نتتبع سلسلة رمز الحيوان في الحكي لوجدنا أنفسنا أمام رهان عالمي، أي أنه ليس غريبًا عن متخيل الإنسان، و مدى تأويله في القص لرؤاه للعالم و مواقفه.

3. الحيوان في قصص الأطفال(مقاربة تطبيقية):

1.3 متخيل الحيوان في أدب الطفل(مقاربة تحليلية فنيّة للمجموعة القصصيّة البطة البيضاء لمحمد جاسم صالح):

2.3: غراب بني آدم:

لعلاقة الإنسان بالحيوان على العموم علاقة خاصة، وعلى الخصوص مع الطفل، وذلك منذ القدم، حيث قد تكون الحيوانات المعلم الأول له، ونرى ذلك مع أقدم القصص التي كان فيها سلوك الحيوان يلعب "الدور الأساس، أو ربما الأول في نقل المعرفة للإنسان، من خلال مشهد الطائر الذي يواري أخاه التراب بعد أن قتله أمام ناظري قابيل، كي يتعلم كيف يدفن أخاه القتيل هابيل" (حجو، 1433هـ-2012م، صفحة 253)، فالطير المقصود هنا هو الغراب،وعليه؛ فهذه الثنائية ترمز إلى ثنائية الشر و الخير، وبالتالي تحمل قيمة إنسانية في ذاتها، فهذه القصة تحمل صور تحاكي سلوك سابق للإنسان في الواقع، حيث إن "كل حدث أو سلوك أو فعل إنما يحاكي عند القدماء حدثا أول، و سلوكا أول، أو فعلا أول" (الكيلاني، 1998، صفحة 163) ، فلسان الحيوان وسيلة من وسائل التعبير الفنيّة الجمالية في القص يعتمدها الكاتب بيد نشر رسالة ما كما لاحظنا في المثال السابق الذي يجسد قيمة أخلاقية يدعو و ويوعي في نفس الوقت المتلقي، ليكسب من خلالها ثقافة و تربية تميز بين الشر و الخير.

كما نجد نزعة تشاؤمية لدى الفرد العربي من الغراب، هي فلسفة ورثناها، من الزمن الأول زمن الأجداد، الذين يسبحون في غياهب الخيال، بيد تفسير حقيقة الأشياء وأصوات الطبيعة و محاكاتها، وفي الحوار التالي نجد الثعلب يذهب للغراب كي يساعده على إخافة الكلب:"وبعد أن

بحث عن الغراب وجده نائما على غصن شجرة عالية، فطلب منه أن يساعده في أن يجعل الكلب يخاف منه، لكن الغراب كان يكره الثعلب لأنه لا يحب صوته" (صالح م.، 2015م، صفحة 02) فكان للغراب في المخيلة الشعبية طابع التشاؤم بالإجماع، وذلك بمجرد سماع نعيقه المزعج ولونه الأسود، وهي صفات تبعث في النفس الخوف و الضيق، وفأل لحدوث أمر بشع، وبهذا يكاد يكون هذا الاستحضار للغراب رمزية يستخدمها الأديب، للدلالة على صفات اتصف بها بعض البشر، فرغم أعظم سواد ريش الغراب، لا يقارب قلب الإنسان إذا اسود، فهي خرافة من نتاج الخيال تبناها الكاتب للتعبير عن موقفه ورؤاه اتجاه ذلك الإنسان الذي أحيانا يتصرف تصرفا شريرا، فبمجرد سماعه لصوت الغراب و انزعاجه منه ينسيه تصرفه السيئ، و يذهب لينسب الشر للغراب نتيجة تصرفه ذاك، فكلمة الشؤم كلمة إنسانية تدل على تصرفات بني آدم بالضرورة، وفي قوله تعالى في سورة البقرة الآية 30: « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك قال إني اعلم ما لا تعلمون » (1440هـ، صفحة 06) و بهذا المفهوم نكسر خرافة نسبة الشؤم للغراب.

2.3 كلب أهل الكهف:

الكلب حيوان طالما كان صديق للإنسان،في السراء و الضراء، فكان يعتمد عليه في الحراسة، مثلما فعل مع أصحاب الكهف، وعلى اعتبار أن الحيوان قد يحمل بعض السلوكيات الغريزية التي تعلمها منه الإنسان، فهذا الكلب في المجموعة القصصية المعنونة بـ (البطة البيضاء) جسد رمزية ذات طابع الحامي و الوفي الذي يهابه المخادع؛ والحوار بين الكلب و الثعلب و البطة و الغراب في القصة يتناول هذه الطباع حيث اخذ الثعلب يستعرض عضلات غروره مدعيا أنه أذكى الحيوانات، فيقول القاص"فكرت البطة البيضاء ثم قالت:أنت تخاف من الكلب،إن كنت ذكيا اجعل الكلب يخاف منك، كيف أجعل الكلب يخاف مني؟ سأذهب إلى صديقي الغراب ليساعدني.

وبعد أن بحث عن الغراب وجده نائما على غصن شجرة عالية، فطلب منه أن يساعده في أن يجعل الكلب يخاف منه، لكن الغراب كان يكره الثعلب لأنه لا يحب صوته.

فقال له:ها...أيها الثعلب المحتال، قد جئت تطلب مني شيئا؟ أنسيت ما كنت تقوله عني؟ توسل الثعلب إليه

وقال: إن شكلك جميل و صوتك أجمل

كان الغراب يعرف أن الثعلب غير صادق في كلامه لكنه قرر أن يساعده فقال له:

هناك قرب الكهف فروة للأسد نزعها من فترة طويلة، البسها و سيخاف منك الكلب حينما يراك

فيرد متسائلا: أين الكلب نادِ عليه؟سترين كيف يهرب مني؟ ضحكت البطة البيضاء و هي تنظر إلى الثعلب الذي لبس فروة الأسد و قالت له: أنت غبي أيها الثعلب؟ فروة الأسد التي تلبسها ممزقة و من ينظر إليك يعرف أنك ثعلب و ليس أسدا قاطعها بصوت عال: أين الكلب؟ ناد عليه بسرعة، لتعرفي كم أنا ذكيٌ" (صالح م.، 2015م، الصفحات 2-3) فهذا المشهد يصور لنا مقولة الكذب و حبله القصير، فاللجوء إليه هو نوع من الهروب و عدم مواجهة الحقيقة.

فالثعلب هنا كنموذج عن الإنسان الذي يكذب على نفسه أولا، ثم على الآخرين، فيقول القاص أيضا:"نادت البطة على الكلب بأعلى صوتها قائلة: يا صديقي الكلب، تعالى بسرعة، وحين وقف الكلب أمام الثعلب نبح بصوت عال و قال مستغربا: من أنت؟ قل لي بسرعة، أنت لست أسدا، فأجابه الثعلب بصوت خشن: أنا أسد الغابة، ألا تعرفني أيها الكلب الغبي؟ضحك الكلب بصوت عال و حرك ذيله و هو ينظر إلى الثعلب متعجبا، فالرائحة رائحة الثعلب و الذيل المتدلي ذيل الثعلب و الأنف أنف الثعلب و أما الصوت فإنه صوت الثعلب و ليس أسدا، إنك تخدعني أيها الغبي، سترى نتيجة كذبك" (صالح م.، 2015م، الصفحات 3-4) فهذه الصفة آفة اجتماعية إنسانية بالدرجة الأولى يجسدها لنا جاسم في هذا الحوار على لسان الحيوان، بيد محاربتها و ذلك تأييدا للروافد الدينية و الأعراف الأخلاقية؛ التي حرمت ودعت لنبذ الكذب لبناء مجتمع سليم، ومن ضحايا هذه الآفة نجد الأطفال وسط هذا الركام من الكذب الذي يشربونه من الكبار فيحاكون هذه الصفة، كما نجد أن هذا المشهد من الناحيّة الجماليّة التقنية يحمل تناص فني مع قصة (ليلى و الذئب) التي سمعتها من جدتي في إحدى ليالي الشتاء الممطر،أثناء انقطاع الكهرباء، ونحن أحفادها ملتفون معها حول موقد النار، وذلك في المشهد الذي تزور فيه ليلى جدتها المريضة، حيث لاحظت تغيّر شكل جدتها في هذه الزيارة، فأخذت تسألها عن كبر عينيها لترد الجدة لأراك جيدا، وصوتها الخشن، وأذنيها الطويلتان مبررة كي أسمع صوتك جيدا، وأيضا عن فمها الكبير، وأنيابه القاطعة الشبيهة لأنياب الذئب ليجيب الذئب المتقمص لدور الجدة التي ابتلعها قبل مجيء ليلى، قائلا: هذا لكي أبتلعك دفعة واحدة، فهذا التناص الأدبي لا ينقص من العمل الذي بين أيدينا في شيء و لا نقد يقلل من القاص بقدر ما هي ميزة لاحظناها في دراستنا هذه، ليس عيب أن يستفيد من تقنيات جماليّة لقصة (ليلى و الذئب) فأجيال تشهد لهذه الأخيرة بتقنياتها الفنيّة.

وبذلك فالقصة تعبر عن الصراع الدائر في المجتمع من جهة، ومن جهة أخرى تعلم الإنسان صفة وقيمة أخلاقية هي: الوفاء، وأما الثعلب ضمنها يلعب دورا رمزيا يمثل طرف في هذه

المعادلة ألا و هو: الخداع، وضمن هذه المفارقة الجماليّة نقف عند ثنائية أخرى تندرج تحت ثنائية الخير و الشر وهي:ثنائية الوفاء و الخداع.

فهذه المشاهد الحوارية بين الحيوانات في قصة البطة البيضاء، تزرع في الطفل روح المسؤولية و الوفاء لتربيته و لوالديه و إخوته و مجتمعه ومنه وطنه، ونبذ صفة الخداع و محاربتها داخل نفسه الأمارة بالسوء و تهذيب سلوكياته، والتي كان الحيوان في هذه القصص المنبه له– للطفل– التي ستنعكس على تصرفاته داخل المجتمع، والتي تميزه كفرد داخله، كما قد تكسبه مناعة ضد الطباع المؤذية، وثقافة التفريق بين الخير و الشر، فالقاص بهذا يكون في مستوى الصراعات و التحولات التي يعيشها الناس في هذا العصر.

3.3 حمار العزير:

ليس غريبا أن تصبح الحيوانات نموذج حي، يستخدمه القاص ليعبر به عن بعض سلوكيات البشر المرفوضة داخل المجتمع، فالحمار سيظل دائما و أبدا في الذاكرة الإنسانية ذلك الصبور المطيع، وهو ما ألفته نفسه من طبع عن هذا الحيوان–الحمار– ففي قصة البطة البيضاء نرى للحمار مقدرة على السير وحدها دون أن تتوه أو تضل الطريق، لذلك يعتمد عليها في نقل الأشياء وحدها أحيانا دون مرافقة ففي مجموعة (القصة البيضاء) و في قصة (الحمار وجد عملا) إن الحمار تتكر لعمله الطبيعي الذي جبل عليه؛ حيث من القدم يستعمل البغال و الدواب للترحال و حمل البضائع حيث سخرها الله لهذا العمل يقول القاص:"تعب الحمار من نقل الحبوب من الحقول إلى مطحنة الغابة، ففكر في أن يجد عملا مريحا غير نقل الحبوب، فذهب إلى الأرنب الصباغ ليساعده في عمله، لكن الأرنب رفض ذلك قائلا: أنت حمار و لا تصلح أن تكون صباغا، ابحث لك عن مهنة أخرى" (صالح م.، 2015م، صفحة 07) وبقى الحمار على هذا الحال مع بقية الحيوانات وتلقى نفس الجواب مما أصابه ذلك بالإحباط و الحزن، إلا حيوان واحد وهو الثعلب، فبمجرد أن طلب منه الحمار العمل معه قائلا: "أريد أن أساعدك في عملك يا صديقي الثعلب، أنا أبحث عن عمل أرجوك دعني أعمل معك، التفت الثعلب إليه و قال بفرح: نعم ستساعدني، أنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي، وبسرعة وضع الثغلب على ظهر الحمار كيسا مليئًا بالجوز ثم قال له: هيا يا صديقي إلى معصرة الغابة، إنهم ينتظرون وصولنا لم يقل الحمار شيئًا و سار بهدوء خلف الثعلب حاملا كيسا ثقيلا مملوءا بالجوز وهو يقول لنفسه: يبدو أنني لا أجيد مهنة غير حمل الأثقال" (صالح م.، 2015م، الصفحات 08–09)، أي مهنته حمّال من الفعل "استحمل، يستحمل،

استحمالاً، فهو مُستحمِل، و المفعول مُستحمَل–للمتعدي:استحمل الشخص: احتمل؛ تجلّد و صبَر، اسْتَحْمَلَ البَغْلُ: قَوِيَ على الحَمْلِ و أطاقَهُ" (معجم المعاني ، 2010).

كما أن المغزى من هذا الحوار الذي دار بين الحمار و بقية الحيوانات، في قصة(الحمار وجد عملا) هو مشهد عن البشر يحمل في طياته رأي القاص عن حال بعضهم: فعلى الإنسان أن يعمل العمل الذي يجيده مما يحقق له مكانة في المجتمع بكرامة، فالإنسان بالدرجة الأولى خلق في الأرض لعبادة الله، ففي صلاته عبادة، وفي تربيته لأبنائه عبادة، وحتى العمل عبادة، ولذلك على الفرد أن يكون في المكان المناسب كي يكون منتوجه جيد، بمعنى خُلقنا كي يكمل بعضنا بعضا، ولا نحتقر دورنا في المجتمع؛ كما قال (إيليا أبو ماضي) في قصيدته (الحجر الصغير)؛ فالحجر هنا رمزية تعبر عن تلك الفئة المهمشة، والمحتقرة داخل المجتمع، كما وضح الشاعر في هذه القصيدة أهمية لتلك الأقلية داخله، وأن غيابها يحدث خللا في منظومة أي شعب، حيث نزعه–أي الحجر الصغير– من السد جعل هذا الأخير يسقط فعم الطوفان و غرقت المدينة، فيدل على أن الكل مكمل لبعضه البعض، وغياب جزء مهما كانت قلته، يؤدي إلى غرق الجميع في متاهات الحياة، وبالتالي كلنا على سفينة واحدة، وخرقها يؤدي لغرق الجميع، وهو الحال لكل أفراد المجتمع، فاستقامته ترد علينا بالخير، واعوجاجه يرجع علينا بالسوء.

أما الحوار الذي دار بين الحمار و القرد:"أرجوك يا صديقي القرد، دعني أساعدك فإنني ابحث عن عمل منذ فترة طويلة، لقد مللت من حمل الأثقال، كلهم يقولون لي: ابحث عن مهنة أخرى، أرجوك ساعدني، تعجب القرد كثيرا من كلام الحمار فتوقف عن جمع الجوز و قال له مستغربا: أنت لا تستطيع تسلق الشجرة و أنت ثقيل الجسم؟ اقترب الحمار من الشجرة و قال للقرد متوسلا: أرجوك ناولني أحد الأغصان و سترى مهارتي في التسلق، وحينما أمسك الحمار غصنا و تعلق به و حاول أن يصعد إلى الشجرة لكن الغصن انكسر و وقع الحمار على الأرض و بدأ يتألم فتعجب القرد و قال له: ألم أقل انك لا تصلح لقطف الجوز؟ ابحث لك عن مهنة تناسبك" (صالح م.، 2015م، صفحة 08) فهو حوار يقدم من خلاله القاص مشهد يوضح فيه، أن عمل المرء في غير مكانه، قد يعرض نفسه للإهانة، وهذا الحكي عبر عنه بقناع جمالي و أسلوب فنتازي، وهو على لسان الحيوان غير الناطق، فقد يعد في هذه القصص ملمح من ملامح الغرائبية التي تثير دهشة الطفل، وشده للقراءة، ويقول في ذلك الباحث محمد حجو:"إن هذا الملمح العجائبي في حكاية الحيوان هو الذي يقف وراء استساغتها و سرعة تقبلها من قبل الأطفال" (حجو، 1433هـ–2012م، صفحة 254) فهي وسيلة من وسائل جذب ذلك القارئ الصغير.

فللحمار معجزة خارقة مع أحد أنبياء الله، ففي عصر نبي الله عزير عليه السلام، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل الذي كان يدعوا الناس للعمل بالتوراة قبل تحريفه، و الوصايا العشر التي جاء بها موسى عليه السلام، بينما كان يعيشون حياة يملؤها الغش و الخداع، و بما أن الله سخر المخلوقات لخدمة الإنسان و من بينها الحمار، ربما هي صورة أراد القاص أن يسلط الضوء عليها في هذه المفارقة الفنية معبرا عن مدى قسوة الإنسان و جشعه مع هذا المخلوق، فراح هذا الأخير يحمله الأثقال و يضربه بشدة و يعامله بقسوة لهذا الحيوان الصبور الهادئ منذ ذلك العصر–أي عصر النبي عزير عليه السلام–حيث تم كَوْيُ ظهور الحمير، وذلك عند لمس تلك المنطقة المسلوخة ينطلق الحمار كأنه حصان، وبالتالي يسهل بيعه، إلا عزير كان يعامل حماره معاملة حسنة رغم فقره، اللذان أماتهما الله و أعاد بعثهما بعد مائة سنة؛ قال الله تعالى:« أو كَالذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِ هَذه اللَّه بعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَه قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرِ إِلَى طَعَامكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انظُرِ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ أَيَةً للنَّاس وَ انظُرِ إِلَى العِظَام كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ" (1440هـ، صفحة 43)؛ وشكلا بهذا آية من آيات الله.

فكانت هذه القصص على لسان الحيوان ذات حمولة تبعث في الطفل قيم خيرة تنفعه و تنفع مجتمعه، فهي تزع في نفسه بذرة الخير، كما تعلمه التعامل مع أخاه بني آدم و لا ينسى أنه حيوان ناطق مخير فقط بفضل الله، وكذلك معاملته مع بقية المخلوقات.

4.4 : طير إبراهيم:

في هذه المجموعة القصصية يتحدث الحيوان إلى الحيوان، فالطيب يمثل الإنسان الخير كما رأينا مع الغراب ثنائية الخير و الشر، والحيوان الذي يمثل دور الشرير دلالة للمرء ذو روح سيئة و"هكذا فالحيوان المساعد للبطل/ الإنسان سليم مكتمل قريب من العمق الخير في البشر، والحيوان المعادي له ناقص عليل يصور المنحى الشرير في روح الناس، وكأنه النفس الأمارة بالسوء" (حجو، 1433هـ–2012م، صفحة 255) مجسدة بذلك ظلم الإنسان لأخيه الإنسان فالحكمة من هذه القصص على لسان الحيوان هو: التعلم و الاتعاظ، وتَكوين شخصية متزنة للطفل، زارعا فيه بذرة الخير و سقيها لتنمو فيه و تكبر معه ليكون فردا صالحا في المجتمع، مهذبة في الوقت نفسه الجانب الشرير فيه.

نجد تيمة الطيور في قصة (الشمس و الطيور) تتجلى في شكل حوار بين طيور الغابة، وذلك بعدما قررت الشمس اختبار "حب الآخرين لها فقررت أن لا تشرق، وبعد أن اختفت انتشر الظلام في الغابة و حزن الجميع" (صالح م.، 2015م، صفحة 17) فالطير عادة ما يرمز له في الكتابات الإبداعية إلى الحرية و السلام في هذا العالم، فهي قيمة إنسانية تقدسها الذات البشرية، وهي فكرة تبناها الطير الذي يؤمن بأن الحرية أغلى من الخبز، و في المشهد التالي من قصة الشمس و الطيور نلفي حوار بين مختلف الطيور وهي كالآتي: "قال البلبل: لن أغرد ما دامت الشمس غائبة، انتبه العصفور إلى كلام البلبل وقال: وأنا لن أزقزق أبدا، أما الحمامة فقالت لهما: وأنا لن أهدل أيضا، ضحك الغراب من مكانه وبعد أن صفق بجناحيه و بعد أن صفق بجناحيه قال: أما أنا فسوف أنعق وأنعق وأنعق...قاااااق قاق" (صالح م.، 2015م، صفحة 17) فأزعجهم صوته مما جعلهم يتوسلون للشمس كي تشرق من جديد"و بعد أن استمعت الشمس توسلاتهم قالت لهم: لن أغيب عنكم بعد الآن، إنكم تحبونني كثيرا" (صالح م.، 2015م، صفحة 17) دار الحوار في هذه القصة بين مختلف أنواع الطيور كأنها تنطق، ولكن الناطق هو القاص المختفي ورائها، مستخدمها كفنيّة للتعبير، كما سبق و أشرنا مع بقية الحيوانات، و"هكذا فإن المعرفة بلغة الحيوان في الحكاية تختلف عن كلام الحيوان في الحكايات التي تدور أحداثها على لسان الحيوان، حيث يستعيض الإنسان عن نفسه بالحيوان ليجعل منه بديلا فنيا يبث من خلاله الرسالة الأخلاقية المراد تبليغها، كما هو معروف في بدائع كليلة ودمنة و سائر حكايات الحيوان ذات الهدف الأخلاقي التعليمي" (حجو، 1433هـ-2012م، صفحة 255).

كما مثل الحيوان بأنواعه صديق للأنبياء و الرسل، و مثل معجزة لهم، كما نرى طير سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث كانت الطيور بمختلف أنواعها تستأنس بالحياة قرب بيت سيدنا إبراهيم يحن عليهم بالغذاء تقربا إلى الله سبحانه و تعالى، وفي فجري يوم من الأيام، ناجى إبراهيم الله عن كيفية إحياء الموتى، فذبح تلك الطيور ليس قسوة عليهم بل هي رحمة بهم و بخليل الله، حيث أطلع الله إبراهيم عليه السلام، على أية من آيات الخلق و على سر من أسرار الوجود و هو سر ما بعد الموت، لاعتقادهم أن هذا الأخير -أي الموت- هو الفناء و العدم و النهاية، لكن الموت في الحقيقة مرحلة من مراحل الوجود و يأتي بعدها البعث و العودة إلى الحياة، وهذا الطلب من إبراهيم ليس نقصا في الإيمان، بل ليطمئن قلبه، فأمر الله النبي إبراهيم أن يذبح أربعة من الطير و يقسمهم إلى أجزاء ثم يجعل على كل جبل جزءا من الطير الذبيح، ثم يدعوها الخليل إليه لتعود للحياة و تسعى إليه دون أثر للذبح، ليبقى سر الخلق و البعث لا يعرفه إلا الله.

فهذا إن دل يدل على أن الإنسان أخذ كثيرا من دروس الحياة من الحيوان، إن تجربة غروب الشمس و عودتها للشروق مرة أخرى في قصة (الشمس و الطيور، ترمز إلى تجربة الموت و العودة للحياة الموجودة في قصة الخليل و طيوره الأربعة، وهو شرف يضاف إلى معشر الحيوان الذي علم بني آدم الكثير.

الحيوان رمزية جذبت مخيال المبدعون لسرد الواقع المعاش بلسانه، وهو كرمز يحمل أبعاد جماليّة فنيّة، دلاليّة ينسج بها الكاتب متون نصوصه، قصد بعث فيها روح جديدة على المعراج اللغوي، لتقوم على مفارقة تعدد القراءات، وذلك عن طريق خاصية الغموض، فاتحا بهذا بابا بمصراعيه على التأويل، كثيرة هي الأعمال الأدبية التي استلهمت من قصص الحيوان في القرآن الكريم أحداثها فزينت قراطيس قصصها برموز و أقنعة فنيّة، من عبق التاريخ الديني في قالب متخيل، يبعث في المتلقي–الطفل– عيش مرحلة روحانية عميقة للذات البشرية.

5. خاتمة:

القصة مورد مهم من موارد أدب الطفل، زرعتها الأمهات و الجدات في رحم الزمن لتعبر عن مرحلة الطفولة كمرحلة أولى من مراحل الإنسان، وعلى اعتبار الخيال جزء من الأدب و أحد أنواعه فسبح في فضائه المبدعون مشكلين به نسيج نصوصهم، فنخلص من هذه الورقة البحثية إلى النتائج التاليّة:

الحيوان رمز جمالي تقني تبناه القاص المعاصر بيد محاكاة واقعه بشكل غير مباشر، معبرا عن رؤاه للعالم بنوع من الحرية أكثر و التنفيس عن ما يكتمه عن طريق إجراء حوار متخيل مع السلطة نفسها.

الملمح العجائبي في قصص الحيوان هو مولد لدهشة الأطفال، وقد يعود ذلك لبساطتها التي تخلق نوع من الارتياح و التقبل في نفسه، ففي عوالم القص كل شيء يبدأ من الطفولة و ينتهي إليها.

ربما الأخلاق هي الرهان الأكبر،و الهدف الذي يسمو إليه الكاتب جاسم محمد صالح في هذه المجموعة القصصية، التي تعد القوى الحقيقية التي تحرك المجتمع و تسير به إلى الفضيلة.

فهذا النوع من الأدب نحن بحاجته لأنه يحاكي الواقع المعاش، ويعلن قضايا بوعي و عمق.

اعتمد القاص في أسلوبه غالبا، على ضمير المخاطب، واضعا بذلك القارئ في قلب الحدث مما ينفعل معه و يتخيله كأنه يعيشه.

المتخيل يكاد يكون لبنة أساسية من لبنات البناء القصصي للأطفال، فالعلاقة بين الطفل و الحيوان، علاقة خاصة يملؤها الغموض و الأسرار، و تجسيد هذا الرمز –الحيوان– في شكل قصصي؛ شكلٌ من أشكال التربية، وطريقة لتعريفه بالمجتمع و هويته، ونوع من أنواع التوعية، وخطاب لأخذ الموعظة، وعليه؛ طالما ولازال الحيوان المعلم الأول للإنسان منذ القدم.

6. قائمة المراجع:

القرآن الكريم. دار ابن الجوزي . القاهرة، (1440ه).
شمس الدين الكيلاني. *من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي، الأسطورة، الدين، الإيديولوجيا،العلم، دار الكنوز الأدبية*،بيروت، (1998).
عبد القادر فيدوح. *تاويل المتخيل السرد و الأنساق*. صفحات للدراسات و النشر، (2019م).
محمد جاسم صالح. *البطة البيضاء*. دار الوفاء، بغداد (2015م).
محمد حجو.. *الإنسان و انسجام الكون سيميائيات الحكي الشعبي*. منشورات الاختلاف، الجزائر (1433ه-2012م).
معجم المعاني. (2010) . Récupéré sur www.almaany.com .